www.kotobarabia.com

www.kotobarabia.com

الخطة الشيطانية

علي يوسف علي

من وحي التاريخ الفرعوني

الخطة الشيطانية

علي يوسف علي

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

فهرس

الخلفية التاريخية للرواية ..... - ٥ -
مقدمة الراوي ..... - ٦ -
الفصل الأول : الأيام الخوالي ..... - ٨ -
الفصل الثاني : المجلس الملكي ..... - ١١ -
الفصل الثالث : أنباء مزعجة ..... - ١٤ -
الفصل الرابع : التتويج ..... - ١٧ -
الفصل الخامس : انقشاع الغمة ..... - ٢٢ -
الفصل السادس : شبح إخناتون ..... - ٢٤ -
الفصل السابع : بزوغ نجم جديد ..... - ٢٨ -
الفصل الثامن : الخطة الشيطانية ..... - ٣٢ -
ختـ ـام الشهادة ..... - ٣٦ -
خاتمة المؤلف ..... - ٣٨ -
تعريف بالكتاب ..... - ٣٩ -
هوامش الكتاب ..... - ٤٠ -

الشخصيات التاريخية الواردة في القصة:

- الملك إخناتون: تولى الحكم عام ١٣٥٢ ق. م.
- الملك توت عنخ آتون/آمون: تولى الحكم عام ١٣٣٦ ق.م.
- الملك آي: كبير الكهنة، تولى الحكم بعد توت عنخ آمون عام ١٣٢٧ ق.م.
- الملك حور محب: قائد الجيش، وآخر ملوك الأسرة الثامنة عشر، تولى الحكم بعد الكاهن آي عـام ١٣٢٣ ق. م.
- رع مسيس (رمسيس) الأول: أول ملوك الأسرة التاسعة عشر، تولى الحكم بعد حور محـب عـام ١٢٩٥ ق. م.
- سيتي الأول: تولى الحكم بعد والده رع مسيس الأول عام ١٢٩٤ ق.م.، والد رمسيس الثاني.
- نفرتيتي: زوجة إخناتون.
- عنخ – إس – إن - آتون/آمون: ابنة إخناتون من نفرتيتي وزوجة توت عنخ آمون.

شخصيات الرواية:

بالإضافة للشخصيات التاريخية:

- سوبك: كاهن، عضو المجلس الملكي – راوي القصة.
- سنموت: كاهن، عضو المجلس الملكي.
- سنفرو: طبيب وعضو المجلس البلدي.
- ساحور: صاحب الخزانة الملكية.
- حابي: أمين سر المجلس الملكي.
- ما-هور: قائد الشرطة.
- تيتي: مربية توت عنخ آمون.

الخلفية التاريخية للرواية

تولى الفرعون إخناتون الحكم خلفا لأبيه إمنحتب الثالث. وفي العام الخامس من حكمه قام بانقلابه الـديني الشهير، حيث ألغى الأديان المتعددة وجعل الإله آتون إلها رسميا للبلاد.

وجرت في أواخر عهده أحداث خطيرة أغلبها يشوبها الغموض، منها القطيعة التي حـدثت بينـه وبـين زوجته نفرتيتي، ثم اختفاؤه فجأة من مسرح الأحداث. وقد أدت هذه الحوادث إلى عودة العقيدة الفرعونية لما كانت عليه، وإلغاء عقيدة التوحيد.

ويرى الكثير من المؤرخين أن إخناتون استلهم فكرة التوحيد من شعب بني إسرائيل (أو الـ ـ "عـابيرو") الذين خالطوا المصريين منذ وصول يوسف عليه السلام، وفي قصة يوسف بالقرآن الكريم إشـارة واضـحة بأنه قد بشر بالتوحيد على أرض مصر حين كان في السجن.

ومن الخطأ الجسيم القول بأن إخناتون هو أول من نادى بالتوحيد، فالرسالات السماوية التي نزلت علـى الأنبياء منذ فجر البشرية قامت جميعها على التوحيد. زد على ذلك أن إخناتون حين نادى بالتوحيد كان ذلـك من منظور وثني، حيث إنه جعل الشمس رمزا لإلهه الذي يعبده.

وتدور أحداث روايتنا هذه في هذا الإطار التاريخي، فتستلهم منه المواقف الدرامية التي روعي وهي تنشد تشويق القارئ وإمتاعه ألا تخل بحقائق التاريخ الفرعوني، وأن تعمق وعي القارئ بهذا التاريخ.

على أن الرواية تعرض في ثناياها لقضية غاية في الخطورة، قضية دور الكهنوت الديني في المجتمعـات المتدينة، وهو دور سيظل قائما طالما وجدت جماهير تخضع لهذا الكهنوت خضوعا أعمى.

مقدمة الراوي

ها أنا قد أحضرت كافة معدات تقديم شهادتي، فالأحبار وأقلام البوص ولفـائف أوراق البـردي مكدسـة أمامي على المنضدة...

ولكن الحيرة تتملكني حول اختيار الإله الذي أتوسل إليه أن يهبني القوة، بعد أن وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا، حتى أتمكن من إنهائها قبل أن تنطفئ شمعة حياتي التي يخبو نورها شيئا فشيئا.

ترى هل أتضرع إلى آمون - رع، ذلك الإله الذي تعلمت منذ نعومة أظفاري أن أتضرع له؟

أم أتضرع للإله آتون كما كنت أفعل في صدر شبابي؟

لقد شهدت البلاد عدة تقلبات فيما يختص بالإله الرسمي للدولة، بحسب العاصمة التي تتخذ للبلاد.

فالإله رع هو إله مدينة أون الواقعة في شمال البلاد، ولذلك أصبح الإله الرسمي للبلاد منـذ وحـد مينـا المملكتين واتخذ منف القريبة من أون عاصمة للبلاد.

والإله آمون هو إله مدينة طيبة، ولذلك حين استولى الـ "حاقاو خاسوت"[1] على مملكة الوجـه البحـري، حكم ملوك طيبة الوجه القبلي. وأصبح آمون الإله الرسمي للمملكة الجنوبية.

وبعد أن وحد أحمس العظيم البلاد مرة أخرى بطرده للـ "حاقاو خاسوت"، دمج كهنة آمون إلههم مع الإله رع، وأصبح آمون - رع هو الإله الرسمي للبلاد.

وتقلبت مشاعري تجاه آلهة بلادي بحسب التطورات السياسية، وما يتبعها من تغيير للإله الرسمي للدولة.

فحين أرسلني أبي إلى الـ "بر عنخ"[2] تمهيدا لأن أسلك سلك الكهنوت، كان آمون - رع هو الإلـه الـذي تعلمت منذ طفولتي أن أتضرع له وأن أرتل التراتيل تمجيدا له.

وفي مطلع شبابي أعلن الفرعون إخناتون التوحيد، فألغى الآلهة جميعا وفرض الإله آتون، وأسس لعبادته مدينة أسماها "أخيتاتون"[3] جعلها عاصمة ملكه. وظل هذا الإله الواحد هو الإله الرسمي للدولة طوال عصـر ذلك الفرعون.

وبعد انهيار حكم ذلك الفرعون، عاد الإله أمون - رع الإله الرسمي للدولة.

ولم يكن صعبا على شاب مثلي عاصر هذه الأحداث الجسيمة أن يرحب بالتحول من عبادة الآلهة المتعددة إلى إله واحد، فقد كان ذلك من وجهة نظري أمرا يتفق مع الفطرة البسيطة.

ولكن المأساة حدثت حينما اضطررت إلى العودة لخدمة الدين القديم القائم على التعددية، بعد انهيار حكـم الفرعون إخناتون وعودة عاصمة البلاد إلى طيبة.

وبعد أن كنت ألفظ اسم الفرعون إخناتون الذي كنت أعتبره نبراس حياتي مـدبجا بكـل ألفـاظ التبجيـل والاحترام، أصبحت مضطرا أن ألفظ اسمه مقرونا بصفة "الزنديق الأول" بعد أن انهار حكمه وعودة الـبلاد لعبادة آمون رع، فأقول بلساني ما يستنكره عقلي وقلبي معا.

لقد خرجت من هذه البلبلة التي وقعت فيها البلاد بين توحيد الآلهة الفرعونية وتعددها كافرا بهـا جميعـا، فكيف أظل على الإيمان بآلهة تقوم وتختفي بقرارات من البشر؟

ولكن حرفتي ككاهن هي الحرفة الوحيدة التي تعلمتها، فليس أمامي إلا مواصلة التمتمة بتراتيل لا أعتقـد في صحتها، والقيام بطقوس لا أومن بها.

ولم يبق أمامي إلا احتمال واحد.

هل أدعو ذلك الإله الخفي عن الأنظار الذي يعبده الـ "عابيرو"[٤]؟

إنهم القوم الذين قدم جدهم الأكبر إلى البلاد عبدا لأحد نبلاء الـ "حاقاو خاسوت"، ثم رفعه ملكهـم إلـى مرتبة الوزارة بعد أن فسر له الحلم الشهير بوقوع الجفاف في مصر لسبع سنوات. وقد استغل زعيمهم مكانته فاستقدم أسرته المكونة من أبيه وأمه وإخوته.

وحين تمكن أحمس العظيم من طرد الـ "حاقاو خاسوت" من بلاد "كيميت"[٥]، لم يختر الـ "عابيرو" الرحيل معهم، ولا اتجه أحمس إلى طردهم معهم. وهكذا بقي الـ "عابيرو" بالبلاد اعتمـادا علـى حسـن الجـوار والمعاملة الطيبة بينهم وبين أهلها الذين لم يجدوا منهم شيئا يكرهونهم بسببه.

وقد اندمج شعب الـ "عابيرو" مع شعب "كيميت" ووصل منهم كثيرون إلى مناصب عالية في البلاد، كمـا تصاهر الجنسان حتى أن بعض الفراعنة اتخذوا لهم زوجات من فتيات الـ "عـابيرو" اللـواتي اشـتهرن بالجمال، وسرى بذلك دمهم في ملوك مصر وملكاتها.

ثم أصبح الـ "عابيرو" مقربين من الفرعون إخناتون بصورة خاصة، وفي عهده انتقل عدد كبير منهم إلى أخيتاتون حيث قرب كبراءهم إليه، بينما انتشروا هم في جنوب البلاد بصورة لم تكن قبل ذلك الفرعون.

على أن الأثر الذي يهمنا في قصتنا هذه لوجود هؤلاء القوم بين شعب بلاد النيل هو ما قيل إن إخناتون قد استوحى فكرة التوحيد منهم. وقد يكون هذا القول صحيحا، على أن عقيدة إخناتون تختلف عن عقيـدة الـ "عابيرو" في أمر جوهري. فإخناتون تغلبت عليه حضارة قومه فجعل لإلهه الواحد الذي يعبـده رمـزا هـو الشمس، بينما يعبد الـ "عابيرو" إلها لا تدركه الأبصار.

وإنني رغم وصولي لهذا العمر المتأخر أعترف بأنني لا زلت لا أدري أي الفريقين في جانب الحق، مـن يعبد إلهه مجسدا، أم من يعبده مختفيا.

فلأرح عقلي من عناء التفكير في التضرع لهذا الإله أو ذاك، فامامي ما هو أهم من هذا الموضوع شأنا.

الفصل الأول: الأيام الخوالي

ترى من أين أبدا شهادتي؟

بعد تدبر وتفكير وجدت أنه قد يكون من الأنسب أن أبدأها من اليوم الذي وقعت فيها حبيبة القلـب جثـة هامدة بين ذراعي، إثر الكأس المسمومة التي دبرت بنفسي أن تتجرعها.

أسجيت في ذلك اليوم المشئوم جسدها البارد على سريرها الملكي، وهو الجسد الذي كنت منذ فترة قريبـة أتمنى أن ألمسه دافئا بالحياة المتدفقة فيه.

وأخمدت بإرداتي الحديدية مشاعري التي تحاول أن تتدفق كالشلال وأنا أستعيد صورتها وهي جالسة على العرش بجوار زوجها تجمع بين الجمال الأنثوي والاستعلاء الملكي، حتى أتفرغ لمهام الطقـوس الجنائزيـة الواجب اتخاذها في حالة وفاة شخصية ملكية.

أصدرت أوامري لياور الأول للمجلس الملكي أن يعلن في البلاد وفاة ملك البلاد سمنخ كا رع، والذي لا يعلم إلا المقربون من شئون الحكم من أمثالي أنه ليس إلا نفرتيتي وقد حكمت البلاد متخفية تحت هذا الاسم[٦]. ثم استقدمت الكاهن المكلف بتحنيط الشخصيات الملكية كي يبدأ إجراءات التحنيط والدفن، وأشرفت على نقل الجسد الخالي من الحياة لغرفة التحنيط، وتأكدت بنفسي من استكمال كافة المواد المطلوبة والمعدات اللازمـة لهذه العملية التي تقرر أن تستغرق سبعين يوما.

وفي نهاية اليوم كان لازما علي أن أقوم بآخر طقس أختتم به يومي طوال العامين السابقين، أن ألقي على جلالة الملك تحية المساء.

***

استقبلني جلالته بابتسامته البريئة الصافية، ثم تعلق في رقبتي قائلا بانفعال:

- "عم سوبك، لم أرك طوال اليوم".

وضممته لصدري، ثم أرسلته قائلا في اعتذار:

- "لقد كان يوما مرهقا يا مولاي".
- "نعم، لقد أخبروني أن نفرتيتي قد ذهبت إلى العالم السفلي كما ذهب أبي الفيضان الماضي".

ثم نظر لي نظرة صافية، وقال:

- "عم سوبك، متى أذهب أنا أيضا إلى العالم السفلي؟"
- "ليس قبل أن تكون طاعنا في السن يا مولاي، وتنجب كثيرا من الأبناء والبنـات، والمئـات مـن الأحفاد."
- "ولكن أبي لم يكن طاعنا في السن، وكذلك نفرتيتي".

مرة أخرى ينزلق لساني قبل أن يحسب حساب ذلك العقل المتوقد بالذكاء فـي هـذا الجسـد النحيـل، وأسعفني عقلي بالخروج من هذا المطب بالقول:

- "لقد شاء والدك العظيم الانتقال للأفق البعيد لأنه يتعجل مصاحبة الآلهة من الفراعنة الذين سـبقوه، وقد شاءت نفرتيتي اللحاق به لشدة تعلقها به، أما أنت يا مولاي فلا بد أنك لن تتعجل فـراق العـم سوبك، أليس كذلك؟"

ورد بانفعال طفولي:

- "نعم، ولكن لا تفارقني أنت."

ورددت في حنو بالغ:

- "لن أفارقك يا مولاي حتى تأذن لي".

ونقلته إلى سريره الملكي، ثم أخذت أردد في أذنيه أهازيج الأطفال التي تعلمناها أبا عن جد، إلى أن راح في سبات هادئ يليق بطفل في السابعة.

وتوجهت إلى الغرفة المعدة لي في القصر الملكي بمدينة طيبة التي انتقلنا إليها منذ أشهر قلائل، تاركين عاصمة الملك الراحل لمصيرها. وطلبت من خادمي أن يعد لي طعام العشاء في فتـرة قيـامي بـالتطهير المسائي. وبعد خروجي من الحمام جلست إلى المضدة لأتناول الطعام، وقلت للخادم:

- " لتذهب أنت للنوم يا سنفرو، فلم يعد لي بك حاجة".

وحياني الرجل وتراجع حتى بلغ الباب، وفتحه مراعيا أن يظل مواجها لي، ثم خرج وأغلقه وراءه.

وبمشاعر متناقضة بين دافع الجوع لمن لم يتناول شيئا يذكر طوال يومه، وبين عدم الرغبة في الطعام لما يجيش في صدره من مشاعر متضاربة، رحت أقضم من الخبز الجاف واللحم المقدد، مساعدا حلقي على البلع بجرعات من النبيذ، سارحا في ذكريات الأيام الخوالي.

وفي شريط سريع من الذكريات استرجعت يوم نودي بالملك أمنحتب الرابع وهو لم يتجاوز الثالثة عشـر من عمره ملكا على البلاد خلفا لوالده العظيم أمنحتب الثالث. كنت وقتها في بداية خدمتي الكهنوتية، لم يمـر على انتقالي من موطني في الفيوم إلى طيبة سوى عام واحد بعد ستة سنوات من الخدمة الكهنوتية بمعبد الإله سوبك – الذي سميت على اسمه - بموطن رأسي بالفيوم.

وها أنا أرى نفسي بين زملائي من صغار الكهنة مصطفين وراء الكرسي الملكي نردد الترتيلات، بينمـا الكاهن الأكبر آي يتقدم ليضع تاج الوجهين على رأس الملك الجديد، وإلى جواره زوجته نفرتيتي يشع بهاؤها في أرجاء القاعة. كما أرى بوضوح علية القوم، وفي مقدمهم حور محب قائد الجيش، يجلسون فـي الصـف الأول من القاعدة الملكية.

ثم يقفز عقلي إلى العام الخامس من ملك جلالته، حين اهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها وهو يصـدر سلسلة من الأوامر الملكية، تتضمن إلغاء عبادة كافة الآلهة، وإعلان الإله آتون إلها واحدا، يتجسد في قرص الشمس، وتغيير الملك اسمه من أمنحتب الرابع إلى إخناتون، والأمر ببناء عاصمة أخرى للبلاد، أطلق عليها الملك اسم "أخيتاتون"، تقع في منتصف المسافة تقريبا بين مدينة منف و مدينة أبيدوس المقدستين.

وفي الأعوام التالية كان الملك يصطفي صغار الكهنة واثقا أنهم من يمكنه أن يبث فيهم دعوتـه الجديـدة، وأنهم سيكونون أكثر استجابة له من كبار كهنة آمون، وقد صدق ظنه بالنسبة لأغلبهم، وبالنسبة لـي بصـفة خاصة، إذ كنت أكثر الكهنة حماسا للدين الجديد. وفي فترة وجيزة كنت أقرب الكهنة إلى قلب الملك الإلـه، فاختارني مدرسا لابنه وولي عهده توت عنخ آتون.

ويسرح خيالي في أيام الإقامة بأخيتاتون، وملك البلاد مشغول بإلهه الجديد، يصوغ بنفسه التراتيل لتمجيده، ويمليها علينا لننشرها في معابد البلاد.

كانت أياما مجيدة لنا نحن الذين نعتبر حواري الملك في دعوته الجديدة، ولكنها كانت أيام بـؤس وشـقاء بالنسبة لغيرنا.

بطبيعة الحال كانت أيام بؤس وشقاء بالنسبة لكهنة آمون، أولئك الذين فقدوا سبب بقائهم بتحول البلاد إلى الدين الجديد. وحتى من تحول منهم لخدمة الدعوة الجديدة، فقد كان معلوما للجميع، عدا الملك بطبيعة الحال، أنهم ما فعلوا ذلك إلا نفاقا، وعلى رأسهم الكاهن الأكبر آي.

وكانت الطبقة الثانية هي طبقة المحاربين، وعلى رأسهم حور محب القائد المظفر الذي خدم الملك العظيم الراحل أمنحتب الثالث وحقق له الانتصارات، وملأ خزانته بثروات البلاد المفتوحة والعبيد من أبنائها.

لقد كان الملك إخناتون منصرفا تماما عن أية طموحات خارج بلاده، فأهمل العلاقات مع البلاد التي فتحت في عصر جده العظيم تحتمس الثالث، والتي بذل والده كل جهده للحفاظ عليها.

ومما زاد الطين بلة أن هذا الإهمال قد شجع كلا من ملك الميتاني وملك الحيثيين في شـمال سـوريا أن يحاولا الاستيلاء على ما تحت بلادنا من أراض في منطقة كنعان وما حولها. وضاعت سدى كل توسـلات الأمراء الموالين للفرعون في أن يهب لنصرتهم.

وبعد فترة هدوء وسعادة ظنناها نحن الحواريين الشبان للملك ستطول إلى الابد، فوجئنا بما لم يكـن فـي الحسبان، فقد أصدر الملك قرارا ملكيا بنفي زوجته نفرتيتي وتحديد إقامتها، وقد كانت العلاقة العاطفية بينهما مضرب الأمثال منذ زواجهما. وثارت الإشاعات في كل اتجاه، أقواها أن السبب هو غيرة الملكـة بعـد أن رزق الملك بابنه من زوجته الجديدة، وهو أمر عجزت عنه نفرتيتي التي أنجبت له ست بنات كـان يحـبهن حبا جما. وقيل إن الملك قد اكتشف مؤامرة تدبرها نفرتيتي لاغتيال الأمير الصغير.

وكما كان قرار استبعاد الملكة التي لم يخفق قلبي لغيرها مفاجئا، كان قرار إرجاعها أيضا مفاجئا، وعادت لتجلس معه على كرسي العرش، ولكنها في هذه المرة كانت صاحبة الأمر والنهـي، فقـد تغلبـت النزعـة الصوفية للملك على كل ما عداها، فترك لزوجته أمور الحكم من الوجهة الواقعية.

الفصل الثاني: المجلس الملكي

ويقفز عقلي لليوم الذي أعلن فيه وفاة الملك إخناتون، وتولت فيه زوجته نفرتيتي رئاسة المجلس الملكـي، وكان يضم إلى جوارها آي كبير الكهنة، وحور محب قائد الجيش، وعددا من الأعضاء من الشخصيات سيرد اسماؤهم في روايتي طبقا لتطور الأحداث، وكنت في هذا المجلس أصغر أعضائه عمرا، وقد برر انضمامي للمجلس المهمة التي أوكلها لي الملك الراحل.

ذلك أنه عندما فتحت وصية الملك وجد أنه عينني وصيا على ابنه ومسئولا عن سلامته. وتلقيـت الخبـر بسرور بالغ، فلقد تعلق بي الأمير تعلقا لم يحظ به أحد ممن هم على صلة به، فهو قد فقد والدته أثناء ولادتها له، وفقد والده في غشوات الصوفية التي أصبحت هي الأصل لا الاستثناء. وبادلته حبا بحب، ذلك لأنني كنت عازفا عن الزواج بسبب تعلق قلبي بمن أعلم أنها أبعد لي من نجوم السماء، فاتخذت منه ابنا روحيا لي، كما اتخذني هو أبا روحيا له.

ومن هذه الصورة ينتقل ذهني إلى اليوم المشئوم الذي جائني فيه الطبيب سنفرو، أحد أعضـاء المجلـس الملكي، ينقل لي تكليفا من أعضائه بأن أتولى وضع خطة لتصفية الملكة جسديا، وكـان لكـل عضـو فـي المجلس دوافعه لذلك.

فالكاهن الأكبر آي محبط لبطء عملية التحول من عبادة آتون إلى عبادة آمون، وعودة كهنة آمون لسـابق عهدهم من السيطرة على الخدمة الدينية، وفي بلاد مثل "كيميت" يعني ذلك السيطرة على جماهير الشعب كلـه كبيره وصغيره، رجاله ونسائه.

والقائد حور محب محبط لتجاهل طلباته لإعادة الجيش لسابق عهده، والضن عليه بميزانية تمكنه من القيام بذلك على الوجه المطلوب، خاصة وأن تحركات أعداء البلاد لضم البلاد الخاضعة للإمبراطورية التي فتحها تحتمس الثالث أخذت وجه العلانية الصريحة.

أما بقية أعضاء المجلس الملكي فكانت غطرسة الملكة واستعلاؤها وطموحها أن تكون الآمرة الناهية فـي البلاد أمرا كافيا لأن يوغر صدورهم عليها، وأن يتمنوا سرعة اختفائها.

أما بالنسبة لي، فقد كانت إشاعة محاولة الملكة التخلص من الأمير الصغير لا تزال تحتل موقعا هاما فـي عقلي، وكان الخوف يسيطر علي أن الملكة لن تتورع عن أن تستغل وضعها وقد أصبحت صـاحبة الأمـر والنهي رسميا لتدبير ذلك، وكانت مسئوليتي عن سلامة الأمير الصغير الذي ارتبط بي وارتبطت به بـأطهر وثاق تجعلني أغاب حب الطفل البريء وسلامته على عشق الحبيبة قاسية الفؤاد.

وكنت في واقع الأمر أفضل من يتولى تنفيذ ما انتهى إليه أعضاء المجلس الملكي، فأنا الوحيد مـن بـين أعضائه الذي يقيم بالقصر الملكي من منطلق مسئوليتي عن الأمير الصغير وعلاقتي به. كما كنت، وهو مـا يجعل قلبي ينفطر من الحزن، موضع ثقة الملكة التي لم تعلم لحظة في حياتها (ولعها تكون قد علمـت بعـد وفاتها) ما يحمله قلبي لها من عشق وهيام.

لن أهتم برواية تفاصيل ما رتبته لتنفيذ ذلك الأمر الرهيب، فهذه التفاصيل لن تضيف شيئا ذا قيمـة لمـن سيقرأ شهادتي هذه من بعدي، ولأنتقل إلى أحداث اليوم التالي لذلك اليوم المشئوم.

كان الجالس مكان نفرتيني متصدرا للمجلس الملكي الكاهن الأكبر آي، وذلك بحكم منصبه طبقا للعـرف الفرعوني، وبقدر ما كان اختفاء الملكة مطلبا شبه مجمع عليه من أعضاء المجلس، فإن الخوف من اختفائهـا كان أيضا شبه مجمع عليه.

لقد كانت بشخصيتها الطاغية صمام أمان ضد تفجر الصراعات وتصادم القوى في المجلس، والتي كنـت أعتبر نفسي على الحياد التام منها. لقد وطنت نفسي على أن ألزم نفسي بأمرين لا ثالث لهما، مسئوليتي إزاء الملك، ومسئوليتي إزاء الوطن.

كانت القوى في داخل المجلس الملكي على النحو التالي: آي يرأس مجموعة كهنة آمون المتعجلة للوصول لسابق مجدها، وفي مقابله سنموت يرأس مجموعة كهنة آتون الذين دار عليهم الزمان وأجبرهم على التخلـي عن الدعوة التي آمنوا بها نفاقا مع العهد الجديد. أما القوة الثالثة فتتمثل في حور محب الذي يرأس مجموعـة العسكريين ممن شهدوا أمجاد الفرعون أمنحتب الثالث وكانوا أعوانا له في تحقيقها، وأخيرا الطبيب سـنفرو والنبيل ساحور أمين سر المجلس، وقد أجلا ولاءهما حتى تستبين الأمور ويتضح من له الغلبة.

وكان أول لقاء للمجلس بعد غيبة الملكة إجرائيا صرفا، متعلقا بتتبع طقوس التحنيط للملكة ودفنها بما يليق بجلالها، واتفق على أن تستغرق عملية التحنيط سبعين يوما، وهي أطول مدة لهذه العملية، وهو ما يدل على عظمة قدر جلالتها.

على أن السؤال الذي كان متوقعا أن يثير الجدل، فكان مكان الدفن.

ففي آخر اجتماع للمجلس الملكي، عرضت نفرتيتي اقتراحا أثار خلافا حادا. لقد رأت ضرورة نقل مقبرة زوجها إخناتون ومقابر كبار معاونيه من أخيتاتون إلى مقابر مدينة طيبة قبل أن تنهب على يد العصابات التي استباحت المدينة بعد هجرها.

كان الاعتراض الجوهري آتيا من قبل النبيل ساحور صاحب الخزانة الملكية. لقد عـرض أن مشـروعا كهذا من شأنه أن يستنزف نصف ما في الخزانة، والتي هي أصلا في أدنى مستوى لهـا نتيجـة الفوضـى العارمة التي صاحبت الانقلاب الديني للفرعون السابق، وخسارة مصر من الثروات التي كانت تجمـع مـن البلدان المفتوحة منذ عهد تحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية، ثم الانقلاب المضاد الذي أغرق الـبلاد فـي فوضى لم تشهدها منذ انهيار الأسرة الرابعة قبل ألف عام أو يزيد.

وانضم للاعتراض بكل حماس الكاهن سنموت، فبقاء المدافن الملكية في أخيتاتون يضمن استمرار اهتمام الدولة بها، وإنقاذها من المصير الذي يخططه آي لها.

أما ما - هور رئيس الشرطة فكان في صف نقل المقابر تخفيفا من مسئوليته في حراسـتها فـي مدينـة مهجورة، وبنفس المنطق وافقه حور محب حيث إنه في أمس الحاجة للقوات العسكرية المرابطة في آخيتاتون لتحقيق أحلامه لإعادة الجيش لما كان عليه.

وكان طبيعيا أن يكون أول موضوع للمجلس الملكي بعد غياب الملكة هو دفنها، هل يكـون فـي مدينـة أخيناتون التي دفن فيها زوجها كما تقضي التقاليد، أم مدينة طيبة التي كانت هي تريد نقل رفات زوجها لها؟

وكان القرار أول مظهر للمواجهة بين القوى المتعارضة، حيث إن القـرار سـوف يقـوي جانبـا مـن المتنازعين على جانب آخر.

ولما كان المجلس حديث العهد بهذه المواجهات، فقد تقرر تأجيل الموضوع على أساس أن مدة التحنيط لا تزال في أولها، وأمام المجلس سبعين يوما ليتبدر أمره.

وحتى يبعد أعضاء المجلس عن أنفسهم أية شبهة بأن لأحد منهم دور في الوفاة المفاجئة للملكـة، أصـدر المجلس قرارا جماعيا بالتحقيق في ملابسات تلك الوفاة، وكلف ما - هور رئيس الشرطة بالقيام بذلك فورا.

الفصل الثالث: أنباء مزعجة

كان الاجتماع التالي للمجلس الملكي طارئا، دعا إليه حور محب قائد الجيش.

وقبل أن يدخل المجلس في مناقشة الأنباء المزعجة التي بررت عقده، اتخذ قرارا بالإجماع بدفن الملكة في طيبة حسما لهذه المسألة، أما القرار بالتحقيق في ملابسات وفاتها المفاجئة فقد دخل غياهب النسيان. ثم تولى حور محب إطلاع المجلس على النبأ المزعج الذي جاءه توا من شمال البلاد.

لقد ظهر إخناتون في مدينة أواريس[٧]، العاصمة القديمة للـ "حاقاو خاسوت"!

وبعد أن أعطى حور محب الفرصة لأعضاء المجلس الملكي لاستيعاب هذا الخبر الذي وقع على رؤوسهم وقع الصاعقة، أتبع الإيجاز بالتفصيل.

فطبقا لما وصله من أنباء، فإن إخناتون قد ظهر في الدلتا، والتف حوله الكثير من أتباعه من المصـريين، وأنه قد جعل من مدينة أواريس عاصمة للمملكة الجديدة التي أسسها.

واضطرت هذه الأنباء المجلس الملكي أن يفتح موضوعا كان يتجنب أن يطرقه.

هل حقا مات إخناتون؟

إن المصدر الوحيد لهذا الخبر كان نفرتيتي، والتي أعلنت في البلاد وفاته، وأنها قد اتخـذت الإجـراءات اللازمة نحو تحنيطه ودفنه في المقبرة التي أعدها لنفسه في أخيتاتون. وقد أثار هذا الإعـلان عـن الوفـاة المفاجئة للفرعون الاحتمالات في كل اتجاه، خاصة وأن مراسيم التحنيط كانت في أدنى مستوى لهـا، حيـث استغرقت أربعين يوما فقط، وهي أقل مدة لهذه العملية، وتكاد تقتصر على صغار الأمراء في الدولة.

من الناس من اتهم نفرتيتي بأنه وراء مقتله لتغتصب الحكم من توت عنخ آتون، كما اغتصبت حتشبسوت الملك من أخيها تحتمس.

فهل كانت نفرتيتي تخطط حقا لأن يعيد التاريخ نفسه؟

وهل كان الكاهن آي شريكها في هذه المؤامرة، لقاء أن تعيد له مجد آمون رع الغابر، وهـو مـا حـدث بالفعل بعد انتقال السلطة لنفرتيتي؟

لقد وافقت نفرتيتي بعد انتقال السلطة لها على الانتقال مرة أخرى لطيبة لتجعل منها عاصمة للبلاد، تاركة أخيتاتون تنعي حظها، ثم ما لبثت أن أعلنت آمون رع إلها رسميا للبلاد وعاد لكهنة آمون مجدهم، كما غيرت اسم ولي العهد من توت عنخ آتون إلى توت عنخ آمون.

وفي المقابل كانت الإشاعات تردد برؤية موكب من الحمير تحمل أثقالا تسللت من مدينة أخيتـاتون، وأن صاحب الموكب هو إخناتون الذي وجد دعوته تخبو شيئا فشيئا، وأحس بروح الغدر تدب بين أقرب النـاس إليه، فقرر الهروب بثروته.

فهل حقا هرب إخناتون بثروته في جنح الظلام، متجها إلى شمال البلاد، حيث يكثر الـ "عابيرو" الـذين كان يعتبرهم أنصارا له؟

كل هذه الأقاويل كانت تتردد بعد اختفاء إخناتون، ولكن المجلس الملكي كان يتجاهلها مكتفيـا بـالإعلان الرسمي الذي أصدرته نفرتيتي، ولكن هذه الأنباء الآتية من الشمال قلبت كل الموازين، وأجبـرت المجلـس الملكي أن يأخذ هذا الأمر بجدية.

ولخص حابي كاتب جلسات مناقشات المجلس الملكي الموقف في الأسئلة التالية:

- هل الأنباء صحيحة من أساسها؟
- وإذا كانت صحيحة، فهل الذي ظهر هو إخناتون بالفعل، أم شخص آخر يدعي نفسه كذلك؟
- وإذا كان الشخص منتحلا لشخصية إخناتون، فهل يلعب هذه اللعبة لحساب نفسه أم لحساب غيره؟
- وإذا كان يلعب لحساب غيره، فهل يلعب لحساب ملك الحيثيين؟ أم لحسـاب ملـك الميتـانيين؟ أم لحسابهما معا إذا كانا قد شكلا حلفا مضادا لبلاد النيل؟

وأخيرا،،،

- هل البلاد وهي في حالة الفوضى التي ضربت أطنابها قادرة على التصدي لفتنة كهذه؟

إن موقف بلاد كيميت لا يبشر بأي خير، فمن الوجهة المالية تعتبر الخزينة خاوية على عروشـها، ومـن الجهة العسكرية فإن الجيش في أسوأ حالاته، فأعداد أفراده قد تناقصت بشكل رهيب، إذ سـرح مـنهم مـن سرح، وفر منهم من فر بعد تأخر دفع مرتبات الجند. أما عن التسليح فحدث ولا حـرج، لقـد هـبط عـدد المركبات لأقل من الربع، وهبط معها تسليح الجيش بنفس النسبة تقريبا.

والذي زاد الطين بلة، أن الملكة لم تبد حماسا لإصلاح الوضع بعد توليها السلطة، ولعهـا كانـت تقتـدي بحتشبسوت في ذلك، والتي بنت سياستها على حسن الجوار مع البلدان الأخـرى وعلـى إرسـال البعثـات التجارية لتبادل السلع معهم.

ولكن شتان ما بين الوضعين. لقد ورثت حتشبسوت ملكا راسخا منذ أيام أحمس، أما نفرتيتي فقد ورثـت مملكة متهاوية، وخزينة شبه خاوية، خاصة إذا كانت أنباء هروب إخناتون بثروته صحيحة.

***

لم تكن من عادتي الانخراط في مناقشات المجلس الملكي، تقديرا لمكانة أعضائه، فأقل واحد منهم سنا في عمر والدي، أما آي فهو يزيد عن جدي عمرا.

ولكني لم أتمكن من كبح رغبتي في الإدلاء برأيي في المسألة، حيث أنها مست وترا حساسا في أعمـاقي. واستأذنت في الحديث، وقوبل طلبي بالموافقة الفورية، فإن الخطب كان يحتاج إلى سماع كل الآراء.

إن العيب الذي خرجت به من تهيئتي لحرفة الخدمة الدينية أنني لم أتمكن بالمرة من أن أكون متحـدثا لبقا، بالرغم من أن هذه الموهبة لازمة لكل من اختار الخدمة الدينية حرفة له. ولذلك فقد تلكأت في الأخـذ بناصية الحديث، ترددا ورهبة، ثم ما لبث لساني أن استرسل في عرض وجهة نظري. وطبقـا لمـا تعـي ذاكرتي المنهكة، فقد كانت كلمتي على النحو التالي:

"تعلمون يا سادتي أن الـ "عابيرو" كان لهم تأثير فكري على الفرعون الراحل، بيد أنه لم يأخذ بمـنهجهم في عدم تجسيد الإله الواحد، بل طغت عليه عادة قومه في تجسيد الآلهة، فاختار لإلهه الواحد الشمس رمـزا، وصاغ كل تبتلاته على أساس هذا التجسيد."

وقاطعني الكاهن سنموت المعروف بضيق الصدر:

- "لست أرى لهذا الأمر صلة بالمصيبة التي حلت بنا اليوم."

ورفع آي يده إشارة لسنموت ألا يقاطعني، وشجعتني هذه اللفتة على الاسترسال.

"ماذا لو أن الـ "عابيرو" وقد خاب أملهم في مليكنا الراحل، مرة بسبب تجسيد إلهه، ومرة بسبب انعزالـه عن الناس حتى انحصر تأثيره في عاصمة بلاده، أرادوا نشر دعوتهم في التوحيد في شمال الـبلاد، وهـي مكان تجمعهم الأصلي كما تعلمون، ضاربين على وتر لغز اختفاء الملك الراحل. ولعلهم سيحاولون هذه المرة ومن خلال ذلك الدعي أن يعيدوا دعوة التوحيد مرة أخرى بمنهجية واستراتيجية مختلفتين".

ولم تواتيني الشجاعة لأن أبين للمجلس أنه من واقع تجربتي الشخصية فإن الضرب على وتر التوحيد من شأنه أن يكسب ذلك الدعي نجاحا ساحقا في دعوته.

ورد آي:

- "على أية حال، يجب التأكد أولا من شخصية مثير الفتنة ومعرفة إلى أي مدى تصل به طموحاته".

الفصل الرابع: التتويج

انفض المجلس الملكي بعد اتخاذ قرار بإرسال شخصية من المجلس للقاء ذلك الدعي في بعثة دبلوماسية للتفاوض معه حول ما يطلبه من دعوته، وكان هذا القرار نتيجة اقتراح من سنموت المعروف بميوله لحركة التوحيد التي أطلقها إخناتون، ويعرف الجميع أنه لا يزال على الولاء لهذه الدعوة.

كما وافق المجلس على أن يكون الكاهن سنموت رئيس البعثة، واعتذرت بشدة عن أن أكون عضوا فيها، متعللا بمسئوليتي تجاه ولي العهد.

على أن السبب الحقيقي هو أنني خشيت أن أوضع في موضع التعارض بين وطنيتي وبين إحساسي الديني، فكما بينت في مقدمة شهادتي، كنت أمر وقتها بمرحلة صراع عنيف حول مفاهيم الألوهية بعد انهيار دعوة إخناتون، وخشيت أن يكون للقائي مع ذلك الدعي – سواء أكان إخناتون حقا أو منتحلا لشخصيته – أثر في انحيازي لعقيدة التوحيد التي ينادي بها على حساب ولائي الوطني.

وفي نفس الوقت، كلف المجلس حور محب أن يتفرغ على الفور لإصلاح حال الجيش، ترقبا لمعركة مع ذلك الدعي إذا فشلت المفاوضات السلمية.

على أن حور محب لم يكن منتظرا تكليفا رسميا للتحرك، ففور تلقيه تلك الأنباء انتدب أفضل رجال استخباراته وكلفهم بالتوجه فورا إلى مكان الأحداث لجمع أكبر قدر من البيانات عن الموضوع بأكمله، وخاصة رصد مدى تأثر العامة بالدعوة التي ينادي بها مثير الفتنة.

كما قرر الانتقال بشخصه إلى مدينة منف، وذلك حتى يكون قريبا من موقع الأحداث. وفي نفس الوقت أرسل تعليماته لأركان حربه القائد رع مسيس المرابط في منف باستنفار قواته ورفع درجة استعدادها لحين وصوله. وقوبلت تلك القرارات الفورية للقائد حور محب بمباركة من المجلس الملكي، وخاصة من آي كبير الكهنة، والقائم بأعمال رئيس المجلس الملكي.

واصطففنا بعد أسبوع من الاجتماع الطارئ على رصيف ميناء مدينة طيبة النهري، للقيام بتوديع رسمي لكل من الكاهن سنموت وأفراد وفده، والقائد حور محب والقواد الذين اصطحبهم معه. وتحركت السفينة التي تقل الوفد بعد شروق الشمس بقليل، أما المركب الحربي فقد تحرك بقائد الجيش بعد ذلك بعلامتين من علامات الساعة المائية.

لم يكن ما دار على الرصيف الملكي لمدينة طيبة احتفالا بالمعنى الحقيقي، بل كان وداعا ران الصمت والوجوم على أغلب أوقاته، وخلاله لم يكف آي عن الحديث مع الكاهن سنموت قبل سفره، مذكرا إياه بضرورة توخي الحرص وعدم التورط في أية اتفاقات خطيرة الأثر قبل الرجوع للمجلس، مركزا على أن دوره هو المناورة لكسب الوقت وليس الوصول إلى أي نوع من الاتفاق.

أما وداعه لحور محب فقد كان وديا لآخر قدر. فرغم عدم ثقة كل منهما بالأخر بسبب التنافس على السلطة، فقد تناسى كل واحد منهما هذه المسألة مؤقتا أمام الخطر الذي يتهدد الوطن.

واتجهنا بعد انتهاء مراسم الوداع إلى قصر الكاهن الأكبر لتناول طعام الغذاء على مأدبته التي أعدها لنـا. وكان غذاء عمل بكل المعاني، إذ دخل الكاهن الأكبر في القضية التالية دون أية مقدمات.

طرح الكاهن الأكبر ما تمر به البلاد من فوضى بعد اختفاء الفرعون السابق، وخلو عرش البلاد.

لقد كان تولي نفرتيتي السلطة غير مرحب به من عامة الناس، فلم تكن هي تلك الملكة التي خلبـت لـبهم وهي إلى جوار زوجها، تحيط بهما بناتهما الست في مظهر من أجمل مظاهر الترابط الأسري.

إن هذه الصورة الجميلة ما لبثت أن انهارت حين حدث الشقاق بين إخناتون وزوجته، خاصة وقد انتشرت الشائعات بأن السبب هو مؤامرة حاولت الملكة بها التخلص من الطفل الوليد. وسواء صحت هذه الإشاعة أو كانت كاذبة، فإن أثرها كان مدمرا على صورة نفرتيتي عند العامة.

ومن جهة أخرى فلم يكن المجتمع بأسره مستعدا لتكرار تجربة الملكة حتشبسوت، فسابقة صـراعها مـع أخيها تحتمس الثالث التي اغتصبت عرشه تجربة لا يحب أحد لها أن تتكرر، ويكفي أن أخاها الذي اغتصبت الملك منه وغيره من الفراعنة كانوا لا يكفون عن محو أثارها من المعابد والمسلات، للتعبير عن كـراهيتهم لها.

على أن الشعب في بلاد النيل لا يستطيع أن يستقر في غياب الفرعون. لقد غرس الكهنة في عقـل ذلـك الشعب تقديس الفرعون حتى أصبح بالنسبة لهم المحورالذي يدور حوله الكون بأسره. فهو الإله الذي يمشـي على الأرض، وهو الذي ينطق بالحق من فم مقدس، وهو الذي له المجد على الأرض في حياته، وهو الوحيد من البشر الذي له الخلود الأبدي بعد مماته، وحين يصعد للسماء بعد ينتقل لينضم لمجلس الآلهة في السماء.

لا بد إذن من الإسراع في تتويج الملك.

هذا ما استقر عليه المجتمعون حول مائدة الكاهن الأكبر، وترك وضع التفاصيل للايام التالية.

***

الخطوة الأولى في التفاصيل هي اختيار ملكة البلاد، من يا ترى تختار لتزف للأمير قبل تتويجه؟

طبقا للقوانين الفرعونية لا بد أن تكون ممن يجري في عروقها الدم الملكي، وكانت المرشحة الوحيدة لذلك هي ابنة نفرتيتي الأخيرة، ذات الثلاث عشرة فيضانا عمرا، الأميرة "عنخ إس إن آتون" والتي تغير اسمها بعد وفاة والدها والارتداد عن دينه إلى "عنخ إس إن آمون". وسوف يخبر الكاهن الأكبر العروس بهـذا القـرار، والذي ليس أمامها إلا القبول به، فالزيجات الملكية ليست أمر اختيار. بينما ترك إلي تمهيـد الأمـر للـزوج المرتقب، ذي السبعة فيضانات عمرا.

وتوجهت في اليوم الذي حددته للقيام بالمهمة إلى حديقة القصر متأبطا لوحة الـداما، وفـي يـدي علبـة الأحجار ذات اللونين، ثم اقتربت إلى الأمير وهو منهمك في تدريب القراءة أمـام المربيـة التـي اخترتهـا لمساعدتي في تعليمه. وطرق أسماعي وأنا أقترب صوته العذب وهو يردد أحكام الحكيم بتاح، وتسـاءلت إن كان عقله المتوقد يستوعب ما فيها من قيم.

وتهللت أساريره حين لمحني، وصاح بفرحته الطفولية:

- "عم سوبك، لقد جئت مبكرا اليوم".

وجلست إلى جواره، ثم قبلته على جبينه، وقلت:

- "لم أجد لدي ما أفعله يا مولاي، فجئتك بلوحة الداما، فما رأيك؟"

قال مبتهجا:

- "فلتكن تيتي مشاهدة لنا".

وابتسمت الفتاة، وقمت بوضع اللوحة على المنضدة ثم أخذ كل منا أحجاره وبدأ في رصها.

وأدركت الفتاة بذكائها معنى نظرتي لها، فمالت على الملك وهمست في أذنه بصوت رقيق:

- "هل يأذن مولاي أن أذهب لأشرف على تجهيز الطعام له؟"

وقال الملك الصغير وهو لاه عنها:

- "لقد أذنت لك".

وقطعت الصمت الذي ساد بيننا أثناء اللعب بالقول:

- "مولاي، إن لدي أخبارا لك".

ورفع رأسه متسائلا، وقال في فرحة طفولية:

- "هل هي الرحلة التدريبية على الصيد؟"

قلت:

- "لا يا مولاي، إن موعد الرحلة لم يحن بعد، ولكن الأمر متعلق بجلوسك على كرسي العرش".

وسألني بانفعال:

- "هل سأضع التاج الذي في غرفتي على رأسي؟"
- "كلا يا مولاي، إنه ليس تاجا حقيقيا، فالتاج الحقيقي قد استلمته من الصانع مساء أمس، ولكنه يشبه التاج الذي في غرفتك تماما".

وبعد فترة صمت وكأنه يتدبر الأمر، قال بحماس:

- "عم سوبك، أريدك أن تكون إلى جواري على الكرسي كما كانت نفرتيتي إلى جوار أبي".

ولم أتمالك نفسي من الضحك، وقلت في حنان:

- "هذا لا يكون يا مولاي، فالملك لا يجلس بجواره على العرش سوى زوجته، وقد كانـت نفرتيتـي زوجة إخناتون الراحل".

وتهللت أسارير الملك وقال:

- "إذن هي نفرتيتي الصغيرة من ستكون بجواري".

وقالت على الفور:

- "نفرتيتي الصغيرة ليست في عمر الزواج يا مولاي، إنه لم ينقض على مولدها سوى ستة فيضانات."
- "ولكني وعدتها بالزواج".
- "وعدك قائم يا مولاي، فعندما تصل هي لسن الزواج يمكنك تحقيقه، ولكن اليوم يجب أن تتزوج من تصلح ملكة للبلاد".

وبدلا من أن يسأل عن الشخصية التي سوف تزف إليه، قال:

- "وهل لي أن أتزوج بأكثر من واحدة؟"
- "عشرون لو أردت يا مولاي".

وأخذ يحرك أصابعه ليمثل العدد الذي ذكرته، ثم تهللت أساريره وهو يقول:

- "إنه لعدد كبير، أكثر من المركبات الحربية التي تكون جيشي في غرفتي".
- "هو ذاك يا مولاي".

وحين رأيت أن شخصية الزوجة المرتقبة لا تشغل باله وقتها، اكتفيت بهذا القدر من الحديث، وانصرفت بعد استئذانه لأداء أعمال أخرى.

***

وجرت مراسيم الزواج بسرعة، أما مراسيم التتويج فقد روعي فيها أن تكون على أعلى مستوى من الفخامة والأبهة، لضمان أكبر قدر من التأثير على العامة، لضمان محو كل أثر لحكم الملك الراحل.

ودب في المدينة نشاط غير عادي قبل التتويج بأيام، فعلقت الرايات والزينات على جانبي أهم شوارعها حيث يمر الموكب الملكي، وأنشئت أكشاك الموسيقى في أرجائها، وأعدت الساحات التي سوف تشهد الاحتفالات الجماهيرية.

وأخيرا، جاء اليوم المشهود.

وضع توت عنخ آمون على كرسي العرش الذهبي المطعم بالأحجار الكريمة، وحمل بواسطة ستة عشر حمالا، ساروا به وسط صفين من الجنود. وسار الموكب تتبعه فرقة الموسيقى، وتتردد على أنغامها تراتيل الكهنة. وفي مقدمة الموكب سار آي وسط كبار كهنته، بينما اصطفت الجماهير على الصفين، يحنون الرؤوس كلما مر بهم شخص الفرعون وهم يصيحون بعبارات التبجيل والتقديس.

واتجه الموكب إلى معبد أمون رع بالكرنك، حيث سوف يرفع الفرعون إلى منصبه الديني الرسمي، فهو الكاهن الأعظم الذي يمثل الآلهة على الأرض. ومن خلال طرق وأبواب سرية سار به الكاهن الأكبر آي إلى قدس الأقداس، وهو أقدس مكان بالمعبد، لا يدخله سوى شخصان، الفرعون الإله والكاهن الأكبر.

وفي قدس الأقداس مد الفرعون يده إلى الناووس، أو الخزانة المقدسة، وأخرج تمثال الإله الأعظم آمـون، المصنوع من الذهب الخالص، وتناول الكاهن الأكبر آي قنينة الماء المقدس ورشه على الفرعون وهو يرتـل على لسان الإله الأعظم: "بهذا الماء المقدس أطهرك، وأهبك الحياة والصحة والقوة."

وأخرج التمثال إلى الشعب المتجمع في ساحة المعبد المكشوفة، فخر الجميع ساجدين للإله الذي لا يحظون برؤيته إلا في حفل تتويج الفرعون، أو في حفل العيد السنوي لتتويجه.

وتعالت صيحات التهليل والموكب الملكي يشق طريقه إلى "بر عا"[٨]، وفي قاعة العرش أجلس الفرعـون، ثم تقدم الكاهن الأكبر من الملك، ووضع ذقنا ذهبية مستعارة على ذقنه الصغير، وأمسكه الصولجان الذي هو شارة الملك، ثم ألبسه تاج الوجه القبلي الأبيض، ثم تاج الوجه البحري الأحمر، كل ذلك وهو يتمتم بالتراتيل، وتردد الكهنة تراتيله.

وفي الصف الأول جلس أعضاء المجلس الملكي، وما أن أنهى الكاهن الأكبر تراتيليه، وانحنى علـى يـد الملك الصغير يقبلها، حتى بدأ عصر فرعون جديد لبلاد النيل، وقمنا مصطفين، وتقدمنا واحدا وراء الآخـر نقبل اليد الملكية المقدسة.

وخلال هذه المراسيم كانت طوائف الشعب مندمجة في الاحتفال بهذه المناسبة جليلة الأثر، بعضهم يتـابع أعمال السحرة والحواة في الساحات، أو يستمعون للأغنيات والأهـازيج علـى أنغـام الموسـيقى ورقـص الراقصات، والبعض الآخر يتناول ما لذ وطاب من المآدب الملكية، ليستمتعوا بما لا يتاح لهم إلا في حفلات التتويج، بينما انهمك آخرون في الصلوات في المعابد تقديسا للإله الذي انضم لتوه إلى مجتمع الآلهة.

وبقرار ملكي تعطف الفرعون الجديد وأمر بأن تستمر هذه الاحتفالات أربعين يوما.

الفصل الخامس: انقشاع الغمة

تقرر أن تأخذ الملكة الجديدة مكان زوجها في تصدر اجتماعات المجلس الملكـي، تخفيفـا عـن الملـك الصغير. ولكن الأسلوب التربوي الذي تلقته الملكة على يدي والدها الراحل جعلها مقدرة لمقـام كـل مـن بالمجلس، فحافظت على أن يكون وجودها شرفيا.

وكان أول اجتماع بعد الانتهاء من إجراءات التتويج مخصصا للاستماع للتقرير الوارد من مدينة منف مع رسول القائد حور محب. ولم يكن التقرير مشجعا بالمرة. فبالنسبة لما جمعه رجال الاستخبارات الذين بـثهم في منطقة الدلتا جاءت المعلومات متضاربة ومبهمة، لا تقطع شكا بيقين.

بالنسبة لمثير الفتنة لم يمكن التعرف على هويته، فهو محاط بسياج من الحراسة تجعل الوصول إليه مـن غير أتباعه أمرا عسيرا، كما فشلت الاستخبارات تماما في معرفة المؤيدين لمثير الفتنة، هل هم من خـارج البلاد أم من داخلها، فالمنطقة التي يسيطرون عليها منيعة تستعصى على المتسللين. كما كانـت المعلومـات حول مدى انتشار دعوته بين سكان البلاد متضاربة لا تصلح لاتخاذ قرار محدد.

أما سنموت فهو لا يزال مقيما بمنف في انتظار رد المدعي بالموافقة على استقباله والوفد المصاحب له.

وكان الوضع أمام المجلس واضحا، لقد عزل شمال البلاد عن جنوبها عزلا تاما، الأمر الذي جعل حـور محب يتوقع أسوأ الاحتمالات، وهو أن يواجه غزوا من جانب المعتدين لاستكمال السيطرة على البلاد.

وبناء على هذه المعلومات أرسل المجلس موافقته على طلب حور محب بإعلان الاستنفار العسكري فـي كافة أنحاء البلاد، وتقرر البدء في تجنيد الأفراد القادرين على حمل السلاح، مع مراعاة ألا يؤثر ذلك سـلبيا على الأنشطة الأخرى، وأهمها الزراعة بطبيعة الحال.

وكما يقول المثل الشائع "وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر"، ظهرت شخصية القائد حور محب القيادية بأجلى صورها في هذه المحنة، ولولاه لما كتب للبلاد أن تنجو منها.

لقد أظهر حور محب همة عالية في استعادة الجيش لسابق عهده، ودبت هذه الروح في أفراد الجيش على كل مستوياتهم. وبعد أن أيقن حور محب أنه قد استكمل قواته كما ينبغي، طلب من المجلس الملكي أن يفوضه في التصرف بما تتيحه الظروف، فأعطاه المجلس تفويضا كاملا بذلك.

وكانت الخطوة التالية لحور محب هي جس نبض المعسكر المعادي، فكلف القائد رع مسـيس أن يتوجـه على رأس الفيلق "كا رع"[٩] بمظاهرة استعراض للقوة على حدود المنطقة التي سيطر عليها المدعي، ولكنه لم يغامر بالاشتباك نظرا لغموض الموقف وعدم توافر المعلومات التي تتيح له وضع خطة مضمونة النتائج.

ولما لم يبد المعسكر المعادي أي رد فعل على هذه المظاهرة العسكرية، اتجه حور محب إلى تكليف قوات خاصة باختطاف من يمكن اختطافه من الأعداء، ورغم التفاني من أفراد تلك القوات في تنفيذ الأمر فإنها لـم تأت بنتائج ذات قيمة، فمن نجا من أفرادها لم يتمكن إلا من اختطاف بعض الأهالي البسطاء الذين لم يقـدموا معلومات ذات قيمة.

وظل الموقف جامدا ردحا من الزمن، ثم فوجئ حور محب برسول من المدعي يوافق على استقبال وفـد سنموت في اسرع وقت.

وانطلقت السفينة التي تقل الوفد في اتجاه الشمال، تسارع الريح المضاد لها، وانقطعت أخبار الوفد فتـرة كان فيها كافة أعضاء المجلس الملكي في منف وفي طيبة على أعصابهم.

ثم عاد الوفد أخيرا، يحمل مفاجأة لم يكن يتوقعها أحد...

إن العدو يطلب التفاوض للانسحاب من البلاد.

كان المدعي في واقع الأمر مصريا من الذين فروا بعد سقوط حكم إخناتون ولجأ إلى ملك الحيثيين. وهناك وضع الملك خطة للاستفادة منه في غزو مصر، وذلك بادعائه شخصية إخناتون، واسـتطاع بهـذه الصـفة الاستيلاء على شمال البلاد مدعما بقوات حيثية.

أما سبب طلب الانسحاب فهو انقلاب حدث في البلاط الحيثي، حيث اغتال شقيق الملك أخاه واستولى على العرش، ولم يكن مؤيدا من ناحية المبدأ لخطة أخيه، ومن ثم فقد أعطى لقائد قواته فـي أواريـس تفويضـا بالاتفاق على الانسحاب، بل وعرض تعويضا مغريا لاستعادة العلاقات السلمية مع مصر كما كانت في عهـد أمنحتب الثالث.

وهكذا انقشعت الغمة، وتهيأت كيميت بلاد النيل المقدس لترتيب أوضاعها.

***

ولم أكن أدخر وسعا في شرح هذه الأحداث للملك الصغير بقدر ما يستوعب عقله، وكان يبـدي حماسـا متوقدا لكي يظل مطلعا على مجريات الأمور، مما ينبئ بشخصية مبشرة حينما يؤون أوان توليه للسلطة.

ورغم انقشاع الغمة، فإنها تركت وراءها بصمة أزعجت الكاهن الأكبر ورجالـه. لقـد رحـل إخنـاتون المزيف، ولكن بعد أن ترك أثرا عميقا لإخناتون الحقيقي.

لقد أطلت فكرة التوحيد برأسها مرة أخرى، وكان على كهنة أمون رع أن يتداركوا الموقف قبل أن يخرج من أيديهم.

الفصل السادس: شبح إخناتون

كان الموضوع المسيطر على اجتماعات المجلس الملكي بعد انقشاع الغزو الحيثي هو دور الـ "عـابيرو" في هذه الأحداث، وهل كان لهم يد في ترويج دعوة الدعي الذي تقمص شخصية إخناتون.

لقد توجه سنموت ووفده إلى شمال البلاد لكي يجمعوا الأدلة حول هذا الأمر، ورغم أن سنموت كـان ولا يزال من أكثر الكهنة وفاء لفكرة التوحيد، إلا أنه كان يفيض بالوطنية التي لا تقبل أن يتورط الـ "عـابيرو" في عملية غزو للبلاد.

وبعد تقصي الحقائق اقتنع الجميع أنه لم يكن للـ "عابيرو" أي يد في هذه الأحداث، فهم قـوم محايـدون سياسيا، كل همهم أن يعيشوا في سلام مع أهل البلاد، وأن يمارسوا عقيدتهم في حرية.

ولسبب لم أعرفه، شعرت بارتياح لخطأ ظني بهؤلاء القوم.

***

تتالت السنوات، وشيئا فشيئا أخذ الملك يتقلد سلطاته، كما بدأت مصر تسترد عافيتها، فجاءتها الأموال من كل حدب وصوب بحنكة أعضاء المجلس الملكي، وعلى رأسه الكاهن الأكبر آي والقائد النظفر حور محب.

وفي نفس الوقت بدأ عقله يتفتح، فبدأ يفكر فيما كان من احداث في فترة طفولته. وكان مصدره الأول في هذا التفكير زوجته، والتي هي في نفس الوقت أخته غير الشقيقة.

كانت عنخ إس إن أمون، التي هي أصغر بنات إخناتون سنا، لا تزال تحمل لأبيها عاطفة قوية، وإذا كانت لم تعارض في تغيير الاسم الذي طالما دللها أبوها به، فما ذلك إلا لإدراكها لتغير القوى، ولم تكـن لتغـامر بتحدي صاحب القوة الحقيقية في البلاد، وهو الكاهن الأكبر آي، خاصة وأن أمهـا نفرتيتـي قـد أصـبحت تعضده.

وانتقل إلى الملك توت من أخته الشعور بالوفاء لذكرى والده الراحل، والامتعاض لتغيير اسـمه وهـو لا يزال طفلا صغيرا لا إرادة له، وتحدث معي عن هذا الأمر في إحدى الجلسات التي كانت تجمعنا بعيدا عـن مشاكل الحكم وأعبائه.

كان الملك قد بلغ الرابعة عشر من عمره، فقررت أن أجيبه بصدق، وكان طبيعيا أن يجرنـا ذلـك إلـى الخوض في الأمور اللاهوتية، والمقارنة بين عقيدة التوحيد التي نادى بها أبوه الراحل، وعقيدة تعدد الآلهـة التي أسسها الكهنة الدينيون وغرسوها في عقل الشعب.

ولا أستطيع وأنا أسجل شهادتي بعد سنوات طوال أن أحدد مدى مسئوليتي فيما حدث للملك مـن مصـير مفجع بسبب تلك المناقشات. لقد كنت كمن وقع بين أمرين أحلاهما مر. كنت وأنا أنخرط مـع الملـك فـي المناقشات اللاهوتية أرصد اقتراب الملك من المنطقة الخطرة التي دخلها أبوه من قبل، تقريبا وهو في نفـس عمره، وهي الكفر بتعدد الآلهة، والإيمان بالتوحيد.

فهل سيعيد التاريخ نفسه؟ هل ستتكرر مأساة إخناتون وما جرت على البلاد من فوضى واضطراب، لم تكد البلاد أن تشفى من آثارها؟

وكأن عقل الملك المتوقد قد لمح ما أنا فيه من اضطراب وبلبلة، فقرر أن يعالج الأمر بنفسه، فاكثر طوال ذلك العام من زيارة مكتبة معبد آمون رع الزاخرة، وأغرق نفسه بين برديانها.

ولم أكن وحدي من شعر بهذا الخطر، فلم يكن يغيب عن دهاء كبير كهنة آمون.

كان آي يبذل كل جهده منذ تتويج الملك في التودد له والاقتراب منه، ويغرقه بالهدايا الثمينة مستغلا ما كان يهبط على مصر من ثروات، ولا يفتأ يقيم له الحفلة تلو الحفلة، ويدبر له رحلات الصيد التي كان الملك مغرما بها، كل ذلك لكي يبعد عقله عن أي تفكير جاد في مصير والده أو ما مر بالبلاد من أحداث في العشرين عاما الماضية.

ولكن يبدو أن للأيام قوة دفع لا تقبل مقاومة، فقد كان العام الرابع عشر من عمر الملك نذيرا مشئوما أحس به الجميع.

وكنت أكثر الناس اكتواء بنير ذلك النذير، والملك يغرقني بأسئلة لا يملك حتى الكاهن الأكبر ردا عليها.

كانت ثوابت الديانة الفرعونية التي تناقلتها الأجيال على مدى آلاف السنين مطروحة في ذهن الملك على بساط النقد والتجريح، وشيئا فشيئا بدأت علاقته برجال الكهنوت الديني يشوبها الجفاء.

وكان هذا الجفاء يتنامى مع كل خطوة يخطوها في الدراسات اللاهوتية الفرعونية، نتيجة شعوره بالامتعاض لأساليب ذلك الكهنوت في نسج الأساطير والخرافات التي يدسونها في عقول الشعب.

أذكر ذات يوم أن الملك توقف طويلا أمام أسطورة الميلاد الإلهي التي ألفها الكهنة إرضاء للملكة حتشبسوت. كنا في زيارة لمعبد الملكة بمدينة طيبة وكان وقتها في العاشرة، وكنت أقص عليه القصة كما كنا نتناقلها نحن الكهنة ونلقنها لغيرنا منذ إنشاء المعبد قبل ستين عاما.

كان الملك الصغير ينقل بصره بيني وبين الرسومات التي كنت أشرحها له، والتي تبين كيف دخل الإله آمون على صورة طائر على الملكة الأم وهي في فراشها، ووضع نطفة الملكة حتشبسوت في رحمها، ويستمع للنصوص التي كنت أقرأها له، والتي تقول إن الإله ذاته هو الذي عين حتشبسوت حاكمة على البلاد.

لم يكن خلال كل ذلك ينبس ببنت شفه، وبعد الزيارة خرج واجما، ولم يكن أمامي إلا احترام رغبته، فلم يطرق الموضوع بيننا على الإطلاق، ولكن في هذه اليوم بالذات انتابني شعور بالتشاؤم.

وقبلها بعام، كنا نتحدث عن أسس اللاهوت الفرعوني، تحدثنا عن المجمع الإلهي لمدينة أون المكون من تسعة آلهة، ثم المجمع الإلهي لمدينة الأشمونين التي كانت تنافس آون دينيا، والمؤلف من ثمانية آلهة، وجهود كهنة المدينتين لتوحيد أساطيرهما بعد دمج المملكتين. كان الملك يوجه لي بين الفينة والفينة نظرات أعلم أنها تحمل تساؤلات يعجز لسانه عن التعبير عنها.

وبعد واقعة زيارة معبد الملكة حتشبسوت خالجني الشعور بابتعاد الملك عني فكريا، فلـم أعـد مصـدره اليقيني للمعلومات، خاصة الدينية منها، وزاد تأكدي من هذا الشعور حينما بدت عليـه ملامـح الاسـتقلال الفكري وبدأ يمارس الدراسة الدينية بنفسه.

***

وجاء الفيضان الخامس عشر بعد مولد الملك، وبعد الانتهاء من الاحتفالات الرسمية به طلب الملك منـي أن أعد له زيارة لشمال المملكة.

لم يكن الطلب في حد ذاته ليثير أي شك، فهو ليس إلا طلبا لملك أن يتفقد شئون دولته، ولكـن صـدري حدثني أن الزيارة تحمل أكثر من ذلك.

وأعلمني الملك أنني سوف أكون مرافقا له في هذه الرحلة، بالإضافة إلى الكاهن سنموت، رغم كونه قـد أصبح طاعنا في السن.

كانت وجهتنا إلى أواريس عاصمة الـ "حاقاو خاسوت"، ومنها تحركنا غربا حتى مدينة "دم إن هـور"[١٠]، عاصمة المملكة الشمالية قبل التوحيد على يد مينا.

وخلال الرحلة تكشفت أسباب الملك الحقيقية منها. لقد كان في كل مكان نصل إليه يطلب التعـرف علـى شيوخ الـ "عابيرو"، ويستمتع بكرم ضيافتهم.

ولكن الأمر لم يكن مقصورا على كرم الضيافة، فقد كان الملك ينتهز كل فرصة ليناقش مبادئهم الدينيـة، وكان في ذلك مصغيا أكثر منه محاورا.

وكم كانت سعادة الملك غامرة وهو يستمع لما اقتبسه الـ "عابيرو" من تراتيل دينية وضعها أبوه الراحل، وكانوا يرددونها في صلواتهم، وقد وجدوا فيها أصدق تعبير عن تقديس الإله الواحد. ولذلك فقد كـان يقبـل على ترديد التراتيل معهم في سعادة بالغة.

ولكن لا الكاهن آي ورجال كهنوته، ولا حور محب وأركان حربه، سوف يكونون بمثل هذه السعادة حين تبلغهم عيون المجلس الملكي المحيطة بالملك بما يقوم به في شمال البلاد.

واستمرت الرحلة ستة أشهر كاملة، ثم عدنا أدراجنا.، ولم يفكر جلالته في زيارة مدينة أون[١١] التي تعتبـر من أقدس مدن بلاد النيل، ومقر عبادة الإله رع، أعظم آلهة الفراعنة قدرا.

وتوقف الموكب البحري عند منف، أول عاصمة موحدة للمملكتين، وخرج كل من حاكم المدينة وكاهنهـا الأكبر يرحبان بجلالته، وأقبل الملك عليهما هاشا باشا. وبعد أسبوع من تفقد المدينة وما حولها عدنا لاستئناف الرحلة.

وعند مرور السفينة الملكية أمام أطلال مدينة أخيتاتون، وضعت يدي على قلبي خشية أن يطلب الملك النزول إليها. لقد كان من شأن ذلك أن يتفجر العداء بينه وبين أعضاء المجلس الملكي علانية، ولكن الملك لم يطلب ذلك، ولا أدري حتى اليوم إن كان ذلك عزوفا منه أو حكمة، ولكن الملك ظل يرقب الأطلال طوال مدة مرور السفينة أمامها، وهو غارق في الشرود.

ومررنا بمدينة ابيدوس، مقر عبادة الإله أوزوريس التي تنافس أون في مكانتها، وهذه المرة تمنيت لو أن الملك يطلب النزول إليها حتى لا يكون احتقاره للآلهة علنيا، خاصة بعد إهماله مدينة أون، ولكن الملك خيب ظني فواصلنا الإبحار إلى أن وصلنا مدينة طيبة.

وازدادت وطأة الشكوك على صدري، مشوبة بمشاعر عميقة من التشاؤم.

الفصل السابع: بزوغ نجم جديد

بقدر ما كان يجيش في صدري من تشاؤم خلال زيارة الملك لشمال البلاد، بقدر ما كان يبدو على الملـك من تفاؤل. لقد رجع الملك من رحلة الشمال ممتلئا حيوية وإقبالا على الحياة، وكأن الرحلـة أمدتـه بـروح جديدة.

وتبدت هذه الروح الجديدة في اجتماعات المجلس الملكي، فلم يعد حضوره فيها هامشيا، بل كان يقبل على المناقشات ويحاور فيها، ولا يفتأ بين الحين والآخر يأخذ الملاحظات.

وبدا للجميع أن الملك يتحول إلى شخصية إيجابية تهيئ نفسها لأخذ ناصية الأمور بين يديها، فهـل هـذا التحول تمهيد لقرارات مصيرية يعد الملك نفسه لاتخاذها؟

***

وكانت أول فرصة يظهر الملك فيها تحوله إلى شخصية إيجابية تأخذ بناصية الأمور حادثة مأساوية وقعت في القصر الملكي.

كنت وقتها أقضي القيلولة تحت ظل شجرة دردار ضخمة في الحديقة الملكية، مستمتعا بقراءة محـاورات الفلاح الفصيح. إنني رغم دراستي لهذا العمل الأدبي الرائع منذ نيف وعشرين عاما، إلا أني لا أمل استعادته لما يثيره في نفسي من إعجاب بشجاعة ذلك الفلاح وهو يقدم للفرعون شكواه بسبب ما حاق به من مظلمـة على يد حاكم المقاطعة، وسعة صبر الفرعون وهو يعطيه الفرصة ليدافع عن حقه مستمتعا بحسن بيانه وقوة منطقه.

وأخرجني من انهماكي صرخات آتية من المطبخ الملكي، فتساءلت على الفور إن كـان مـا ظننـاه أنـا والكاهن سنموت قد تحقق.

وهرعت إلى المطبخ، فوجدت المدعو نفر-خنوم، وهو أحد مساعدي الطباخ ملقى على الأرض، ودلـت التقلصات على وجهه وما أفرغه من جوفه قبل موته على أنه مات مسموما، فتركت المكان وهرعـت إلـى حيث يقطن الكاهن سنموت لأبلغه الخبر.

واضطررت أن أطلب من الخادم أن يوقظ الكاهن المسن من نومة القيلولة، وهو أمر يعلم الجميع أنـه لا يكون إلا لحدث جلل.

وبعد لحظات دخل الكاهن وقال دون مقدمات:

- "لا أظنك إلا وقد جئتني بالخبر المشؤوم؟"

قالت:

- "هو ذاك يا مولاي، لقد مات نفر-خنوم أثناء عمله".

وسأل:

- "مسموما؟"

وأجبت:

- "مسموما"

وجلس الرجل أمامي ينظر نظرة متسائلة، وكأنه يسألني ماذا يكون رد فعلنا وقد تحولت ظنوننا إلى حقيقة مفزعة. ولم يكن لدي ما أجيب به.

إن القتيل هو أحد مجموعة من الفدائيين اختارهم الكاهن سنموت وقمت بدسهم في المطبخ الملكي لتـذوق أي طعام يعد للملك. كان ذلك بناء على اتفاق بيني وبين الكاهن حين انتابتنا المخاوف أن يقوم الكاهن الأكبر آي بمحاولة لاغتيال الفرعون.

وكانت العلاقات بين الاثنين تزداد جفاء يوما بعد يوم، خاصة مع نفور الملك من أداء الطقوس الدينية التي تمليها عليه واجباته الملكية طبقا للأعراف الفرعونية.

فطبقا للعقيدة الفرعونية فإن الفرعون، والذي هو إله سليل الآلهة، يعتبر الرئيس الديني الأعلـى للعقيـدة الفرعونية، وبحكم هذا الوضع يكون هو حجر الزاوية في الطقوس الدينية التي تقام للإله الأعظم آمـون رع في أعياده.

وفي العيد الأكبر من العام الماضي أشيع أن الملك يجتاز وعكة صحية، وأنه قد فوض الكاهن الأكبـر آي في أن يحل محله في الطقوس الدينية. وكان كل من في المجلس الملكي يشكون أنه في العيد القـادم سـوف يلغى الاحتفال أصلا، بعد أن يكون الملك قد أقدم على ما يخشونه، وهو إلغاء عبادة آمون رع وغيره من آلهة فرعونية.

وجمع الخوف على الملك ما بيني وبين سنموت، فبدأنا في اتخاذ مجموعة مـن الاحتياطـات، منهـا دس الفدائيين من أتباع سنموت الذين لا يزالون على وفاء لعقيدة الملك الراحل إخناتون التوحيدية، ليبطلـوا أيـة محاولة لدس السم في طعام الملك.

وفي نفس الوقت أغرقت القصر بحرس سريين من أتباع سنموت، دسستهم في القصـر تحـت وظـائف مختلفة، مهمتهم إبطال أية محاولة لقتل الملك غيلة.

***

عند عودتي من منزل الكاهن سنموت وجدت ما-هور قائد الشرطة قد تولى الأمر، فأمر بنقل الجثة إلـى معمل الطبيب سنفرو ليبين سبب الوفاة وملابساتها.

وبعد يومين كان موعد الاجتماع للمجلس الملكي، وقدم كل من سنفرو وما-هور تقريرهما عن الحادث.

لم يأت تقرير الطبيب سنفرو بشيء لا يعلمه الجميع، فالقتيل مات مسموما بعد تذوقه الطعام الـذي كـان يفترض أن يكون غذاء الملك.

أما تقرير رئيس الشرطة فقد كان مثار دهشتي البالغة.

بدء ما-هور بشرح التدابير التي يتخذها للحفاظ على سلامة الملك، ومنها دس عملاء سريين داخل المطبخ الملكي لكشف أية محاولة لدس السم لجلالته. ثم أشاد بهؤلاء العملاء الذين قبلوا أن يعرضوا أرواحهم للخطر فداء للإله العظيم فرعون البلاد، وأن القتيل ما هو إلا شهيد ضحى بحياته في سبيل فرعونه وإلاهه.

ثم عرض ما-هور نشاط رجال مباحثه لكشف الفاعل الذي ارتكب الجرم، فإذا به يكتشف أنه طباخ معين حديثا، وأنه من الـ "عابيرو".

ونزل القول علي كالصاعقة!

إن الكاهن الداهية آي قد رتب الجريمة مع أخيه قائد الشرطة ترتيبا محكما. فالخطة الأصلية أن يموت الملك مسموما، أما الخطة الاحتياطية فهي تحميل الـ "عابيرو" المسئولية، حتى يوغر صدر الملك على هؤلاء القوم. وحتى إذا لم تنطل الحيلة على الملك، فسوف تنطلي بكل تأكيد على عامة الشعب الذي يتلاعب آي وكهنته بعقله كيفما يشاءون.

وأكمل قائد الشرطة تقريره.

لقد اعترف المذنب بأن المحرضين هما اثنين من زعماء الـ "عابيرو" بالمنطقة، وأنه قد تم إلقاء القبض عليهما، وسوف يبدأ التحقيق معهما في اليوم التالي.

وبعد أن أنهى الرجل تقريره جاء دور الملك في التعقيب.

أثنى الملك على قائد الشرطة ورجاله على يقظتهم، وأغدق عليهم المكافآت، كما أمر بصرف مكافأة سخية لعائلة الشهيد، مع قرار ملكي أن يحنط على نفقة الملك، رغم أن مكانته لا تتيح له التحنيط أصلا، فقد كان التحنيط مقصورا على الفرعون والعائلة الملكية وكبارموظفي الدولة.

وانفض المجلس على أن يعود للانعقاد فور انتهاء ما-هور من استجواب السجينين.

وبعد ثلاثة أيام عقد المجلس، ليسمع تقرير ما-هور عن نتيجة التحقيق. وأنهى رجل الشرطة المحنك للمجلس أن المذنبين اعترفا بأنهما كانا يعملان بناء على أمر من الكاهن العبراني للمنطقة، والذي أعلمهما أن اغتيال الملك الكافر هو أمر سيقربهم من الإله الذي يعبدونه.

وبدأت الدائرة تضيق بخناق الـ "عابيرو".

وفي اليوم التالي كنت مع المشاهدين ننظر للكاهن العبراني وهم يأتون به محمولا على محفة لكبر سنه، ويذهبون به إلى "بيت الأغلال"، وهو الاسم الذي يطلق على مكان التحقيق، الذي يعرف الجميع أنه مكان تمارس فيه أبشع أنواع التعذيب.

وكاد قلبي ينفطر لما سيحل بهذا الشيخ المسن في اليوم التالي.

***

ولم تكن خشيتي في محلها هذه المرة.

ففي الصباح الباكر من اليوم التالي، فوجئ المسئولون عن "بيت الأغلال" بجلالة الملك يدخل عليهم، فهبوا للقائه وقد تملكهم الرعب.

كان الملك قد أمرني في ذلك الصباح أن أصحبه، دون أن يبين لي وجهته. وأتيح لي أن أرى منظـرا لا أنساه في حياتي.

الشيخ المسن مسجى على محفته يتمتم بعبارات هامسة، ناظرا إلى سقف الغرفة، منتظرا الموقف الرهيب الذي سوف يواجهه بعد ساعات.

والملك يتقدم منه بكل احترام، ثم يقوم بنفسه بفك أغلاله، ويأخذ بيده لينهضه من محفته.

ونهض الرجل، ثم انكب على قدمي الفرعون يقبلها، وكم كنت أتمنى في تلك اللحظة لو أحذو حذوه.

وأمر الملك بالرجل فحمل إلى داخل القصر ليعامل كضيف ملكي، وتوجهت مع الملك إلى غرفـة ديـوان الملك.

واستدعى الملك كاتبه، وأملى عليه قرارا بالإفراج عن السجناء من الـ "عابيرو" في هذه القضية.

وتملكني الرعب...

لقد بدأت الحرب بين الملك والكاهن آي تأخذ شكلا علينا، وقد كشف كل طرف أوراقه للطرف الآخر.

الفصل الثامن: الخطة الشيطانية

إن الكاهن آي، ذلك الكاهن الذي لم يؤثر تقدم العمر في صلابته وعناده، ولا مكره ودهائه، لن يسمح بأي شكل من الأشكال أن يخرج من المواجهة مهزوما.

وجميع أعضاء المجلس مجمعون على تلاشي تكرار ما حل بالبلاد في عصر الملك الراحل إخناتون مهما كان الثمن. وكنت الوحيد الذي يتمزق بين الخوف من انزلاق البلاد لفتنة الانقلاب الديني، وبين خوفي على سلامة الملك الذي كانت سلامته بالنسبة لي أكثر من مجرد مسئولية تحملتها في فترة من الفترات.

وتعددت لقاءاتي مع سنموت نتدبر كيف نحيط الملك برعايتنا لصد أي مؤامرة غادرة تحاك له، وتوصلنا إلى بعض الأفكار عزمنا أن أتحين أقرب فرصة بعد عودة الملك من رحلة الصيد التي سوف يقوم بها لمفاتحته في ذلك.

ولم تحن هذه الفرصة على الإطلاق.

لقد رجع الملك من الرحلة جثة هامدة!

***

كان طبيعيا ألا يتفوق اثنان من الكهنة المسالمين على داهية كالكاهن الأكبر آي. لقد ترك ذلك الداهية لنا ساحة حماية الملك داخل القصر، واتجه هو بمؤامرته في اتجاه آخر.

فطبقا للإعلان الرسمي، انفصلت إحدى عجلات المركبة الملكية وجلالته منطلق بها بأقصى سرعته أثناء الصيد، فانقلبت المركبة عدة مرات ولقي جلالته مصرعه على الفور.

ولم يدخر الكاهن آي وسعا في أن تقام المراسيم الجنائزية على أعلى مستوى، فنشر النادبات على طول البلاد وعرضها يلطمن الخدود ويضربن الرؤوس ويقطعن الثياب، وقد لطخن وجوههن بلون النيلة الأزرق ولبسن السواد الذي هو لباس الحداد المعروف عند الفراعنة، ومن ورائهن نسوة البلاد جميعا يقتدين بهن. وهرع الرجال للمعابد لحضور تراتيل الوداع الأخير للملك المتوفي، مهللين له وهو ينتقل للانضمام لمجمع الآلهة في السماء، شأن كافة أجداده من الفراعنة.

أما الثروات التي أعدت لكي تصاحب الملك في مقبرته، ليتمتع بها حين تعود الـ "با"[١٢] الخاصة به لتسكن جسده في الحياة الأخرى فلم تكن لأي فرعون من قبله، رغم قصر مدة حكمه.

وكأن آي كان يحاول بتكديس هذه الثروات إخماد صوت بداخله يؤرقه عما ارتكبه في حق الملك الذي تغذى به قبل أن يتعشى هو به.

... أو لعله كان يهدف إلى أن يصيب القوم بدهشة تبعد عقل المشاهدين عن التفكير بجدية في قضية مصرع الملك.

وتوجهت إلى غرفة التحنيط لأشارك في مراسيمها، ففوجئت بالملكة حاضرة، مرتديـة ملابـس الحـداد السوداء، وما أن لمحتني حتى هرعت لي لترتمي في أحضاني مجهشة بالبكاء.

ثم رفعت وجهها لتتلاقى عيوننا في تفاهم صامت.

وأصرت الملكة على حضور كل طقوس التحنيط، على مدى سبعين يوما. كانت هذه الطقوس هي النهايـة للمآسي التي شهدتها أسرة الفرعون الراحل إخناتون، ولم يعد أمامها وهي آخر فرد في ذريته إلا انتظار يوم اللحاق ببقية ذويها.

ولم تتح لي رؤيتها بعد نقل الملك لمثواه الأخير. ففي أول اجتماع للمجلس الملكي طلبـت إعفـائي مـن خدمتي الكهنوتية، وأجيب طلبي بإجماع فوري لم أدهش له، وانتقلت إلى مسقط رأسي منتظرا بدوري يـومي الأخير.

وتكرم المجلس البلدي فوهبني ضيعة متواضعة في مسقط رأسي، ومنزلا رحبا ذا حديقة غناء، كما عـين مجموعة من الخدم والحراس لخدمتي، وفي هذا المنفى الاختياري قبعت أرقب الأحداث التالية، يمـدني بهـا رفاق العمر من الذين دفعهم الوفاء لى ألا تنقطع زياراتهم حتى اليوم.

أما سنموت فقد اختار أن يكون أول اللاحقين بالملك، فقد وافته المنية أثناء مراسم التحنيط. ولم يكن خفيـا علي أن الإحباط الذي أصيب به بعد وفاة الملك - الذي كان يأمل أن تعود فكرة التوحيد على يديه - كانـت سببا في التعجيل بمنيته.

***

آلت السلطة بعد مصرع الملك للكاهن آي، ولكنها كانت هذه المرة سلطة مطلقة، لا ينازعه فيها أحد، حيث أعلن نفسه فرعونا، ولم يعارض أحد من المجلس الملكي في ذلك القرار.

لم تطل الأيام بالكاهن آي رئيسا للبلاد، فلم يزد عهده عن أربعة فيضانات، وخلالها بدأت سـطوة الكهنـة على مقدرات البلاد تعود لسابق عهدها، فأتخمت خزانات المعابد بكل نفيس وغـال مـن الـذهب والفضـة والأحجار الكريمة، كما ازدحمت خزائن القرابين بما يقدمه المؤمنون تقربا للآلهة أو أمـلا فـي اسـتجابتهم لتضرعاتهم.

وفي منفاي الاختياري كنت استشف هذه التطورات من التغيرات الجسدية لكهنة معبد سوبك الذي يعبد في مسقط رأسي، فظهرت الكروش على الكهنة وازدادت وجناتهم احمرارا وأردافهم اكتنازا، وبدا على بيـوتهم آثار النعيم السابق الذي كانوا يتمتعون به قبل انقلاب إخناتون الديني.

وخلال ذلك، كان المجلس الملكي مشغولا بأمر رأى أعضاؤه أنه جد خطير.

كيف يوقف تأثير الـ "عابيرو"؟

لقد تطلب وقف هذا التأثير اغتيال فرعونين وزوجة أحدهما، في غضون أقل من عشرين عاما.

وكان الشعور بالعار قد دب في نفوس أعضاء المجلس الملكي بسبب تسرب هذا التأثير للفكر الديني لبلاد النيل. لقد كان هدف تحتمس الثالث من تكوين الإمبراطورية التي كونها أن ينشـر الثقافـة الفرعونيـة فـي الشعوب المجاورة، ولم يدخر وسعا في استقدام أبناء أشراف هذه الشعوب، وإدخالهم مدرسة في مدينة طيبـة أعدت خصيصا لهم ليتشربوا فيها حضارة بلاد النيل.

أما ما حدث لإخناتون من تأثر بأفكار الـ "عابيرو" الدينية، وعزوف عن فكرة الإمبراطورية، فقـد كـان بمثابة انتكاسة لمشروع تحتمس الثالث الحضاري.

ثم ما لبث أن ظهر هذا التأثيرعلى ابنه، ولكن بصورة أكثر خطورة بمراحل.

لم يكن الملك الجديد مشابها بأبيه في نزعته الصوفية التي كانت تدفعه للانفراد بنفسه، وهو ما جعل تأثيره بعيدا كل البعد عن عامة الشعب، بل كان ممتلئا بالنشاط والحركة، وكان لا يضيع أية فرصة للاقتـراب مـن أفـراد رعيته، ولم تكن رحلات الصيد التي كان يقبل عليها بشغف إلا وسيلة من وسائل تحقيق التواصل مع الشعب.

والأخطر من ذلك، كان فكر توت الديني متطورا عن فكر والده، وأقرب لفكر الـ "عابيرو"، فهو مثلهم لم يكن يؤمن بتجسيد الآلهة، فكان من شأن النكبة المنتظره على يديه أن تكون أفدح بمراحل من تلك التي تسبب فيها والده.

وطبقا لما شهدته من تطورات وأنا في منفاي الاختياري، كانت الخطة التي رسمت لتحصين البلاد من أثر فكر الـ "عابيرو" تتضمن عددا من المحاور.

رفض المجلس الملكي بداية فكرة طرد الـ "عابيرو" من البلاد، فمن شأن ذلك أن يدفعهم للانضمام لأعداء بلاد النيل الذين قويت شوكتهم بصورة أصبحت تهدد بالشر الوبيل في الأيام الآتية، وإذا كان الـ "عابيرو" قد وقفوا على الحياد من محاولة الغزو الحيثي، فإن ذلك سوف يتغير بعد أن تتبدل مشاعر الود تجاه شعبنا إلـى عداوة بسبب طردهم.

كما رفض المجلس أيضا فكرة التصفية الجسدية لهم، فبلادنا التي قدست العدالة في شكل الإلهة ماعت أبعد من أن تكون أرضا لمذابح بشرية.

واستقر الرأي على خطة ذات شقين، أحدهما وضعه حور محب، والثاني الكاهن الأكبر آي.

أما خطة حور محب فتنبع من طبيعته كمقاتل عسكري، وتتلخص في استبقاء الـ "عابيرو" في بلاد النيل، شريطة أن يوضعوا في وضع أدنى من أهل البلاد، فيحرموا من الأنشطة الحياتية إلا ما كان منهـا أقـرب لأعمال العبيد.

وتطلب الأمر لنجاح هذه الخطة أن يوضع هؤلاء القوم تحت رقابة صارمة تمنعهم من محاولة الخـروج من البلاد، حتى لا يكونا عونا لأعدائها ضدها، وهو الأمر المتوقع حيث ستكون نفوسهم قد امتلأت بالكراهية بسبب ما سيواجهونه من اضطهاد.

وفي نفس الوقت فقد خطط الكاهن الأكبر آي لغزو مضاد، يهدف لإفساد عقيدة الـ "عابيرو" بين أهلها.

لقد بدأ آي بخبث شديد يقرب من زعماء الـ "عابيرو" من يمكنه إغـراؤهم بالـذهب وشـتى المغريـات الأخرى، ليصبحوا رؤوس الحربة في دس الفكر التعددي وتجسيد الآلهة بين أفراد قبيلتهم.

وفي المقابل، وضع خطة تهدف لتحصين المصريين ضد التأثر بفكر الـ "عابيرو"...

فبتعليمات مشددة، ضاعف كهنته من إغراق الشعب في ممارسة الطقوس الدينية الهادفة لتبجيل الآلهة التي ورثناها جيلا بعد جيل منذ وهب الإله حابي أرض كيميت النيل العظيم.

وزاد الكهنة من نشاطهم في نسج الأساطير حول الآلهة الفرعونية، وتحويلها إلى أغان يغنيها المزارعون في الحقول والأمهات في البيوت.

وطبقا لتعليمات آي، دب نفس الحماس بين السحرة، فراحوا يدعمون تلك الأساطير بما يعرضـونه علـى الناس من عجيب أعمالهم وغرائب حيلهم..

كانت أكبر حملة لإعادة ترسيخ القيم والمفاهيم الدينية في عقول الشعب شهدتها البلاد منذ ظهورها بين الأمم.

ولم ينتقل آي إلى الحياة الأخرى إلا وقد كانت هذه الخطة الشيطانية بشقيها قد حققت قدرا كبيرا من النجاح.

***

وخلت الساحة لحور محب ليتولى العرش. وأثبت هذا القائد العسكري العظيم مهارة فائقة في إعادة بـلاد النيل لسابق مجدها، حتى أصبح يعد من أعظم من ملكوا مصر من الفراعنة.

وكان طبيعيا أن يكون من أهم أعماله التي استهدف بها إعادة مصر لسابق مجدها متابعة الخطة ضد تأثير الـ "عابيرو"، بشقيها العسكري المتمثل في اضطهادهم الذي وضعه هو، والديني المتمثل في إفساد عقيـدتهم والذي اقترحه آي.

ولم يلحق هذا الفرعون بمن سبقوه من فراعنة إلا وقد آتت هذه الخطة أكلها بصورة أصبحت فـي غايـة الوضوح.

ومات حور محب دون أن ينجب من يرثه في الحكم، وزال حكم الأسرة الثامنة عشر التي أسسها أحمـس العظيم بعد طرد الـ "حاقاو خاسوت".

وأسس "رع مسيس" رئيس أركان حور محب الأسرة التالية، وترتيبها بين الأسـر المالكـة منـذ توحيـد المملكتين على يد مينا التاسعة عشر، والتي نحن تحت ظلها اليوم.

ورغم أن الملك الجديد لم يعمر في الحكم أكثر من فيضان واحد، فإنه قد اتخذ قـرارا مصـيريا بالنسـبة للبلاد.

لقد نقل العاصمة من طيبة – التي كان يعتبرها مهدا للفتن الدينية – إلى "بر مسيس" فـي شـمال الـبلاد، بالقرب من أواريس التي كانت عاصمة الـ "حاقاو خاسوت".

وتولى الفرعون سيتي الملك بعد أبيه، وواصل – كما واصل أبوه من قبله – تنفيذ الخطة التي وضعها آي وحور محب ضد الـ "عابيرو".

ختـ ـام الشهادة

بدا جليا تأثر الأجيال الجديدة من الـ "عابيرو" بهذه الخطة، فقد اكتسبوا أخلاقيات لم تعرف عنهم في عهد أجدادهم منذ أن استقدمهم جدهم الأول.

لقد أحال الاضطهاد عزة نفسهم خضوعا، كما تسببت سياسة الإغراء لكبارهم في نشر روح النفاق بينهم، ناهيك عن الشره لجمع المال.

***

وليس من شك أن الفراعنة القادمين سوف يسيرون على نفس النهج بالنسبة للـ "عابيرو"، فقـد أصـبحت خطة آي – حور محب أشبه بميثاق يلتزم به الفراعنة، كوقاية للشخصية القومية - التي يعد التعدد والتجسيد حجري الزاوية فيها – من أية فتنة قد تطيح بها.

ولكني لا أحمل نفس التفاؤل الذي يحمله الجيل الجديد من هذه الصحوة القومية. كما لا أشعر بالسعادة التي يشعر بها غيري لنجاح الخطة التي دبرت ضد تأثير الـ "عابيرو".

لقد أفسدنا ما كان صالحا، وليس في ذلك ما يبشر بأي خير، هذه عقيدتي التي استقيتها مـن روح الديانـة التي نشأت على أرض هذا الوطن، والتي تربينا عليها، بصرف النظر عن تعدد الآلهة أو تجسيدها.

وإذا كانت الخطة قد آتت ثمارها على مدى عشرين عاما حتى الآن، فإن هذه الفترة لا تمثل أكثـر مـن شهقة في عمر الأمم، وهي فترة لا تعني بالضرورة تحقيق الخير للبلاد على المدى الطويل.

من يا ترى هو الفرعون الذي سوف يدفع ثمن هذا الإفساد؟

لقد قام القانون الفرعوني منذ أن وضعه تحوت في فجر التاريخ على الخير والعدالة، ومن وحيـه تجسـد الخير وتجسدت العدالة في شخص ماعت كإلهة فرعونية.

ولست أرى من الخير إفساد أخلاق شعب، ولا من العدالة اضطهاده، والقيام بذلك جريمة بكل المقـاييس، حتى لو كان مرتكبها الكاهن الأكبر، ودافعه في ارتكابها خير بلاده من وجهة نظره..

فإذا كانت عقيدتنا هي الصحيحة، فإن الإلهة "ماعت" لن تترك هذه الجرائم دون عقاب.

أما إذا كانت عقيدة الـ "عابيرو" هي الصحيحة، فإن الإله الخفي عن العيون الذي يؤمنون به هـو الـذي سيتولى إنزال ذلك العقاب.

وعلى أي من الحالين، فلست أرى من المواجهة مع الـ "عابيرو" من خلال هذه الخطة إلا مبشرا بقـرب نهاية هذه الأمة التي وقفت شامخة بين الأمم منذ تاريخ لا تعيه الذاكرة.

***

ترى، هل تقع شهادتي هذه بين يدي أحد الفراعين القادمين في المستقبل، فيتدارك الأمر ويعالج ما أفسـده ملوكنا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؟

مرة أخرى، لا أعلم لي إلها أدعوه ليحقق هذه الأمنية لي...

ولا أعتقد أنه قد بقي لي من العمر ما يكفي لكي أتخذ في هذه القضية العويصـة قـرارا يخرجنـي مـن حيرتي.

***

كتب في الفيوم مدينة الإله سوبك،

في اليوم الثالث عشر من شهر أبيب، العام السابع من ملك صاحب الخلود الأبدي الفرعون سيتي الأول.

بيد سوبك

ابن كيميت الحبيبة.

خاتمة المؤلف

تحققت نبوءة الراوي، ودفع أحد فراعين مصر جزاء اضطهاد بني إسرائيل ومحاولته منعهم عن الخروج من البلاد.

ولا توجد أدلة قاطعة على شخصية ذاك الفرعون، فمن مقابلة التواريخ الفرعونية بتواريخ بني إسـرائيل فإن المرشحان لذاك هما إما رمسيس الثاني أو ابنه مري – إن – بتاح[١٣].

وسواء كان هذا الفرعون أو ذاك، أو فرعون آخر غيرهما، فإن الحقيقة التاريخية المؤكدة هـي أن العـد التنازلي للحضارة المصرية بدأ بعد وفاة رمسيس الثاني. فهذا الفرعون الذي حكم مصر ثمانية وستين عامـا أنهك مقدرات البلاد في تخليد ذكراه وما تركه من معابد وتماثيل ومسلات طوال هذه الفترة بالغـة الطـول، بحيث لم تقم للبلاد بعده قائمة، وتأهلت لأن تكون نهبا للغزاة من شـتى أجنـاس البشـر، ليبيـين ونـوبيين وأشوريين وفرس وإغريق ورومان.

وهكذا خرجت مصر من مسيرة التاريخ لألف وخمسمائة عام بعد وفاة رمسيس الثاني، ولم يقدر لهـا أن تعود لتمارس دورها الحضاري إلا بعد دخولها في إطار الدولة الإسلامية التي نشـأت فـي القـرن السـابع الهجري.

وسبحانه عز من قائل: "وتلك الأيام نداولها بين الناس". صدق الله العظيم

تعريف بالكتاب

يزخر التاريخ الفرعوني بأحداث تمثل معينا لا ينضب للفكر الإبداعي، وتحتل الروايات المستوحاة من هذا التاريخ مساحة كبيرة في من الأدب العالمي بكل لغات العالم.

وروايتنا هذه إضافة إلى هذه المساحة، وتدور أحداثها في فترة من أكثر فترات تاريخ مصـر اضـطرابا وفوضوية، وهي فترة الانقلاب الديني الذي قام به إخناتون، ثم الانقلاب الديني الذي قام بـه كهنـة آمـون لاسترداد مكانتهم السابقة.

وبالإضافة إلى عنصري الإثارة والتشويق، يهدف مؤلف الرواية إلى تعميق ثقافة القارئ بالنسبة للتـاريخ الفرعوني، تاركا له استخلاص ما يشاء من عبر منها.

المراجع التاريخية للرواية:

- تاريخ مصر الفرعونية، نيقولا جريمال، ترجمة ماهر جويجاتي، دار الفكر والدراسات.
- Dictionary of Ancient Egypt, Thames & Hudson

هوامش الكتاب

[١] الـ "حاقاو خاسوت" هو الاسم الذي أطلقه المصريون القدماء على الهكسوس، ومعنى الكلمة "الحكام الأجانب".

[٢] "بر عنخ" تعني "بيت الحياة" وهو الاسم الذي كان يطلق على المدرسة.

[٣] "أخيتناتون" تعني "أفق آتون"، وهي تقع بالقرب من تل العمارنة بمحافظة المنيا.

[٤] الـ "عابيرو" هو الاسم الذي أطلقته شعوب سوريا على العبرانيين، أو شعب بني إسرائيل، وقد يكون ذلك بسبب أنهم عبـروا الفرات في نزوحهم من العراق إلى فلسطين.

[٥] "كيميت" هو اسم مصر لدى المصريين القدماء، ومعناه "الأرض السوداء".

[٦] يرى بعض المؤرخين أن الفرعون سمنخ كا رع الذي حكم بعد آخناتون ليس إلا نفرتيتي، وأنها حكمت البلاد متخفية تحـت هذا الاسم، انظر Dictionary of Ancient Egypt, Thames & Hudson .

[٧] تقع هذه المدينة مكان قرية "قنتير" بين مدينتي فاقوس والحسينية بمحافظة الشرقية.

[٨] "بر عا" تعني "البيت الكبير"، وهو الاسم الذي كان يطلق على القصر الملكي.

[٩] "كا رع" تعني "قرين الإله رع".

[١٠] "دم إن هور" هي مدينة دمنهور عاصمة محافظة البحيرة، ومعنى التسمية الفرعونية "مدينة الإله حورس"، وقد كانت المدينة مركز عبادة ذلك الإله، ويجدر ملاحظة أن لفظ "إن" هو في اللغة الفرعونية أداة ربط المضاف إلى المضاف إليه، أي يماثل لفظ "of" في اللغة الإنجليزية.

[١١] تقع مدينة أون في هليوبوليس الحالية.

[١٢] الـ "با" تعني الروح، أما الـ "كا" فهي القرين، وتصور كطائر يرفرف على جثة المتوفى.

[١٣] "مرى إن بتاح" تعني "محب الإله بتاح"